المبحث الخامس
أثر نظم السلاجقة في الدولة الزنكية والأيوبية والمماليك

أولاً: الدولة الزنكية:

أحدث السلاجقة تأثيراً واضحاً في الدول التي حلت محلهم أو جاءت بعدهم في مختلف الجوانب العسكرية، فيذكر ابن الأثير أن ديوان زنكي كان يشبه إلى حد كبير دواوين السلاجقة في نظمه من كثرة الحاشية وجمال الزينة ونفاذ الأمر [1]، وهذا - بدون شك - من آثار نظم السلاجقة الواضحة في أتابكتهم الذين ترسموا خطاهم فساروا عليها في جميع أحوالهم، وبهذا كان الزنكيون أول من طبق النظم السلجوقية وعلى رأسها النظم العسكرية[2]، فكان عماد الدين زنكي (ت 541هـ) رجلاً عسكريًا اعتنى بجيشه وبتنظيماته فجعل ديواناً خاصاً يعنى بطعامهم ومرتباتهم وأسلحتهم وكان يتولى أمور الجيش أمير حاجب يرجع للسلطان مباشرة [3]، وكل هذه التنظيمات قد وجدت عند السلاجقة، وجاء من بعده ابنه سيف الدين غازي (ت544هـ) الذي قد تربّى في بلاط السلاجقة، فكان لهذا تأثير كبير في سياسته وإطلاعه على أمور الحرب وإدارة الدواوين فكان يقلّد سلاطين السلاجقة في زيه وركوبه وإظهار قوته [4]، ونظراً للاتصال الكبير بين السلاجقة وعماد الدين فقد تأثر بكثير مما وجد لدى السلاجقة، فكان يشارك السلطان محمود السلجوقي في لعب الكرة على ظهور الخيل وسار أولاده على نهجه [5]، حتى كان نور الدين محمود يداوم اللعب بالكرة تدريباً للخيل ومنعاً لبدانتها حتى أتقن اللعب بها تماماً [6]، وكان يأمر كافة قواده أن يلعبوا بالكرة مع أفراد الجيش كل يوم بعد صلاة العصر خشية أن يركن الجيش إلى الكسل [7]، وهذا يدل على تأثر الزنكيين بالنظم السلجوقية والفكرية والثقافية والعلمية كما سيأتي بيانه بإذن الله.

ثانياً: الأيوبيون والمماليك:

أشار القلقشندي إلى أن أهم الدول والإمارات التي قامت في المنطقة كانت تستمد نظمها من السلاجقة في معظم الأحيان، وذكر بعض المؤرخين أن بعض تلك الدول قد حذت حذو السلاجقة في كل شيء كالدولة الأيوبية[8]، فقد اعتاد الجيش المصاحب لشيركوه على الأنظمة المتوارثة عن السلاجقة، فكانت أنظمتها العسكرية وسياستها الحربية مستمدة من الأنظمة السلجوقية التي عايشها الأيوبيون الأوائل عندما كانوا في كنف عماد الدين زنكي، بل كان مجيء صلاح الدين إلى مصر في جيش من جيوش ابنه نور الدين، فقد اعتمد نور الدين محمود نفس النظم التي كان السلاجقة قد أرسوا

(1) الباهر ص 83.
(2) تاريخ الموصل ص 283 سعيد الديوه حي.
(3) النظم الحربية عند السلاجقة ص 340.
(4) المصدر نفسه ص 340.
(5) المصدر نفسه ص 340.
(6) الباهر ص 168 - 169.
(7) تاريخ الموصل ص 446.
(8) نور الدين محمود، عماد الدين خليل ص 67 النظم الحربية ص 341.

قواعدها والتي كان أبوه زنكي قد أعتمدها - من قبل - وأفاد منها إلى حد كبير وجاء الأيوبيون والمماليك في أعقابهم ليسيروا بهذه النظم نحو مزيد من النصح والشمول [1]، حيث يذكر القلقشندي أن المماليك تأثروا في نظمهم بالسلاجقة بفعل ما أخذوه عن الأيوبيين الذين نقلوه بدورهم عن السلاجقة عن طريق أتابكتهم [2]، ومن هنا يؤيد عماد الدين خليل الرأي القائل بأن المنطقة كلها قد تأثرت في هذه المرحلة التاريخية بشكل كبير، أو صغير بما أنشأة السلاجقة من نظم حربية مختلفة [3]ويذكر حسن حبشي أن السلاجقة كانوا من أسباب التأثير الحضاري غير المباشر للشرق على الغرب والذي نجم عن الاحتكاك العسكري عبر الحروب الصليبية [4]، كما تأثرت الأجهزة المدنية والعسكرية في الدولة العثمانية بما وجد لدى السلاجقة حتى اعتبرت امتداداً لتلك التنظيمات [5]، ليس بحكم أصل النشأة فالجميع أتراك وإنما بتأثير الامتداد والتعاقب الحضاري ويمكن محاولة تتبع هذه التأثيرات السلجوقية بدراسة المجالات العسكرية المتنوعة والتي منها:

1- أجناس وعناصر الجند: قام السلطان صلاح الدين بإعادة تنظيم الجيش بعد فتحه لمصر، فصار مكوناً من الأكراد والأتراك والتركمان بشكل رئيسي [6] وفي هذا التغيير دلالة على ثقته الكبيرة في هذه العناصر العسكرية من خلال المعرفة السابقة لها في جيش نور الدين وإقصاء العناصر التي كان يتألف منها الجيش الفاطمي، ولا زالت متأثرة بالولاء للدولة الفاطمية [7]، ويذكر المقريزي التزام المماليك بعد الأيوبيين في الاعتماد على هذه العناصر بقوله: أنه بعد زوال دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الأتراك فحذوا حذو مواليهم بني أيوب واقتصروا على الأتراك وشيء من الأكراد واستجدوا من المماليك التي تجلب من بلاد الترك شيئاً كثيراً [8].

2- تكوين الجيش: تكون الجيش الأيوبي من فرق كانت تعرض أمام السلطان فرقة بعد فرقة وموكباً بعد موكب، بلغ عددها مائة وسبعة وستين فرقة، وكانت تعرف وقتذاك باسم طلب يتكون ما بين مائتي فارس إلى مائة إلى سبعين فارساً [9]، وكانت عملية جمع الجيش الأيوبي للقيام بالحملات الكبرى مشابهة في أساسها ومضمونها لما عند السلاجقة، فيتم استدعاء فرق الأمراء الذين أقطعوا المدن والأقاليم للمشاركة بجيوشهم في هذه الحملات [10].

3- فرق الجيش: كان في الجيش الأيوبي فرقة النشابين الذين يرمون بالنشاب وفرقة

(1) النظم الحربية عند السلاجقة ص 342.
(2) صبح الأعشى (4/ 3، 4).
(3) نور الدين محمود ص 67.
(4) السلاجقة مجلة الرسالة، عدد 663 ص 302.
(5) قيام الدولة العثمانية ص 171.
(6) الصليبيون في الشرق ص 189، النظم الحربية ص 343.
(7) النظم الحربية عند السلاجقة ص 343.
(8) الخطط للمقريزي (95/1).
(9) الخطط (86/1) جيش مصر، نظير سعداوي ص 9.
(10) النظم الحربية عند السلاجقة ص 344.

النفاطين؛ وهم الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء، والمنجنيقون وهم رماة المنجنيف، والعيارون؛ وهم رماة الحجارة كانوا يملأون مخالي[1]، الخيل بها [2]، كذلك اتباع العسكر أو الأوباش والرعاع ويسمون سوقة أو حواش [3]ويذكر المقريزي أن الجاويشية قد وجدوا عند المماليك وكانت مهمتهم تنظيم سير مواكب سلاطينهم [4]، وهذه كلها تنظيمات وفرق مشهورة في الجيش السلجوقي ووجودها عند الأيوبيين والمماليك يدل دلالة واضحة على التأثير السلجوقي في الجيش الأيوبي والمملوكي[5].

4- الخطط والفنون القتالية: استعمل الأيوبيون في قتالهم طريقة المصاف، بتقسيم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب بالإضافة إلى المقدمة والساقة، فيصف شاهد عيان كيف قسم السلطان صلاح الدين جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب استعداداً للقتال [6]، كما استخدام التقسيم في معركة الرملة كذلك [7]، وهو من الأساليب التي اتخذها السلاجقة في قتالهم، ومعلوم أن هذا التقسيم نظام قديم ومعروف ولكن التشابه في استخدامه يشير إلى التأثير السلجوقي على الأيوبيين كجانب من جوانب التأثير لديهم [8] وعندما نأتي لدراسة عهد الدولة الأيوبية - بإذن الله تعالى - سوف نرى الخطط والفنون القتالية التي تأثر بها الأيوبيون بالسلاجقة، كالحرب الخاطفة والمباغتة، وتطويق العدو، الكمائن، واستدراج العدو ومحاولة تحديد مكان المعركة [9]... وغير ذلك.

5- وسائل نقل الأخبار ووسائل الاتصال: تأثرت وسائل الاتصال الأيوبية في عهد صلاح الدين بما وجد لدى سيده نور الدين محمود في مجال استخدام الحمام الزاجل التي كانت تُعلَّق فيها الكتب حيث تعود بها إلى أوكارها فيوصل المسؤول عنها الكتاب إلى من وجَّه إليه، ونسب بعض الباحثين إلى عماد الدين زنكي استخدام الحمام الزاجل قبل ابنه نور الدين [10]، ويعتبر عماد الدين من ولاة السلاجقة، وقد أظهر الخليفة العباسي الناصر في العصر السلجوقي العناية بالحمام وتربيته [11]، واستخدمه الفاطميون وبالغوا في الاهتمام به حتى أفردوا له ديواناً بأنسابه [12]، فاستفاد صلاح الدين من الحمام وإيصالها لأخبار العدو إليه، حتى كان بعض الجند يتخذ حماماً يدرَّبه تدريجياً على الطيران من مسافات بعيدة، وعمل لها الأبراج الخشبية قرب خيمته حيثما نزل، كما استفاد منها في

(1) ما يجعل على ظهر الخيل من جلد أو غيره يوضع بها ما يراد حمله على الخيل.
(2) جيش مصر 20.
(3) الفتح القسي ص 565 للعماد الأصفهاني.
(4) الخطط (209/2).
(5) النظم الحربية عند السلاجقة ص 345.
(6) النوادر لابن شداد ص 34، النظم الحربية ص 345.
(7) المصدر نفسه ص 53 النظم الحربية ص 345.
(8) النظم الحربية ص 345.
(9) المصدر نفسه ص 351.
(10) المصدر نفسه ص 351.
(11) صبح الأعشى (435/14، 346) النظم الحربية ص 351
(12) النظم الحربية ص 351 نقلاً عن صبح الأعشى.

التعرف على أخبار مدينة عكا وحصار الصليبيين لها والتنسيق مع أهلها لمقاومته [1]، وساهم استخدام الحمام في مباغتة صلاح الدين للصليبيين أثناء محاولتهم الاستيلاء على الإسكندرية ودمياط نتيجة لوصول أخبارهم إليه مباشرة بهذه الوسيلة [2]، وكان تأثر الصليبيين بهذه الوسيلة في نقل الأخبار كبير، فأعجبوا بها ونقلوها إلى بلدانهم [3]، وقد استخدم الحمام الزاجل بعد ذلك في عصر المماليك فأطلق على المشرف على أبراجه برَّاج [4].

6- الإقطاع العسكري: يقول المقريزي بعد حديثه عن الوزير نظام الملك والإقطاع موضحاً التأثير السلجوقي في هذا المجال على من جاء بعدهم واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين وأربعمائة إلى يومنا هذا [5]. هذا كما وجد عند الأيوبيين كناحية من نواحي التأثير المتعددة للسلاجقة على الدولة الأيوبية، ويرى بعض المؤرخين أن الإقطاع ذا الصبغة العسكرية في عهد صلاح الدين كان استمراراً لوجوده السابق عند السلاجقة وأتابكتهم [6]، ووجد الإقطاع أيضاً عند المماليك بعد ذلك بينما احتفظ العثمانيون بما كان متبعاً لدى السلاجقة في مجال الإقطاع [7]، وفي ذلك كله دلالة واضحة على التأثير الذي أحدثه نظام الإقطاع العسكري السلجوقي لدى الدول التي جاءت بعد السلاجقة [8].

7- التقسيم العشري: اتبع السلاجقة التقسيم القائم على تقسيم القادة العسكريين ابتداءً من كبار القادة أمراء المائة ومروراً بأمراء الطبلخاناة ثم العشرات فالخمسات وهي أقل هذه الدرجات وهي من التنظيمات المهمة في عصر السلاجقة، وكان لها تأثيرها البالغ في بعض من جاء بعدهم من الدول، فكان عماد الدين زنكي قد اتبع هذا التنظيم العسكري، ثم اتخذ أساساً لتنظيمات الأيوبيين في هذا المجال [9]، وبلغ أوج استقراره ونضجه لدى المماليك بعد ذلك [10].

1- الألقاب العسكرية:

أ- الأتابك: كانت بداية هذا اللقب عند السلاجقة، وتطور حتى وصل بالأتابك من الناحية العمالية بعد ذلك توريث وظيفته حتى على مستوى امتلاك الحكم.

فكان صلاح الدين قد تدرّع بكونه أتابكاً للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وعن هذا الطريق ضمَّ سوريا - كما سيأتي بيانه عند حديثنا عن صلاح الدين في الدولة الأيوبية بإذن الله، كما ظلَّ هذا

(1) الحرب عند العرب ص 337، النظم الحربية ص 351.
(2) النظم الحربية عند السلاجقة ص 351.
(3) النظم الحربية عند السلاجقة ص 351.
(4) الإسلام في حضارته ونظمه ص 145، النظم الحربية ص 352.
(5) الخطط (95/1) النظم الحربية ص 355.
(6) الجيش الأيوبي، محسن محمد ص 129 النظم الحربية ص 355.
(7) قيام الدولة العثمانية، محمد فؤاد ص 170، 171.
(8) النظم الحربية ص 356.
(9) المصدر نفسه ص 356.
(10) المصدر نفسه ص 356 الخطط (215/2 - 219).

اللقب حرفة مستقلة كذلك حتى عهد المماليك[1].

ب- الأسفهسلار: وكانت مهمته الإشراف على الجند في العصر السلجوقي، ثم انتقل اللقب عن طريق الدولة النورية إلى الدولة الأيوبية [2].

ج- اللباس العسكري: يفضِّل القلقشندي التأثيرات السلجوقية في هذا المجال على الأيوبيين عن طريق أتابكتهم، فكان اللباس العسكري الأيوبي مماثلاً، سواء في ذلك القادة أو الجند، فكانوا يلبسون الكلوتات [3] الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها، سواء في ذلك المماليك والأمراء وغيرهم [4]، ويوافقه محسن محمد على ذلك حتى أن التغييرات التي أحدثها بعض الأتابكة، كسيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ثاني أتابكة الموصل (544) حينما استحدث حمل السنجق [5] على رأسه، وألزم الجند بشد السيوف في أوساطهم، وجعل الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب، قام السلطان صلاح الدين بتطبيق ذلك [6]، ويؤكد ذلك القلقشندي بقوله عن صلاح الدين بأنه: جرى على هذا النهج أو ما قاربه [7]، ومعلوم أن اللباس عند الأتابكة قبل تعديلات سيف الدين غازي هو بذاته لباس السلاجقة وبذلك يكون التأثير السلجوقي قد انتقل بواسطة أتابكتهم، وكان من عادة السلاجقة استخدام الجاليش في مقدمة الجيش السلجوقي، وهو عبارة عن خصلة من شعر الحصان توضع في أعلى الراية أمام الجيش ثم انتقلت على مقدمة الجيش وقد انتقلت هذه العادة إلى الأيوبيين[8]، فهذه بعض الإشارات العابرة حول أثر نظم السلاجقة في الدول الأخرى.

* * *

(1) النظم الحربية عند السلاجقة ص 357.
(2) الألقاب الإسلامية ص 157 حسن الباشا.
(3) الكلوتات نوع من اللباس يوضع على الرأس.
(4) النظم الحربية ص 358، صبح الأعشى (5/4، 41).
(5) السنجق لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح والجمع سناجق وهي رايات صفر صغار يحملها السنجقدار في موكب السلطان.
(6) الجيش الأيوبي ص 122، 123.
(7) صبح الأعشى (6/4) النظم الحربية عند السلاجقة ص 358.
(8) التاريخ العباس ص 196إبراهيم الأيوب.